المحاضرة رقم 06: ديوان محمد العيد آل خليفة

ارتبط اسم الشاعر محمد العيد آل خليفة بالحركة الإصلاحية في الجزائر لأنه حمل هموم وآلام هذا البلد من خلال شعره وحارب من أجله، وقد جُمع هذا الشعر في ديوان مطبوع، وتجدر الإشارة إلى أنّه لا يزال جزء معتبر منه لم يقيّد لأسباب مجهولة.

هذه المحاضرة عبارة عن قراءة نقدية لديوان محمد آل خليفة، نحاول فيها عرض المضامين الشعرية، ومن خلالها نحكم على القالب الشكلي الذي وردت فيه.

مضامين الشعر في ديوان محمد العيد آل خليفة

تنوّعت المضامين في هذا الديوان بين الساسية الاجتماعية والدينية:

_ القضايا العربية:

أشار الشعر الجزائري الحديث إلى قضايا عربية كثيرة، تخصّ بلدان المشرق كفلسطين والعراق والكويت ولبنان وسوريا ومصر والسودان وبلدان المغرب كتونس والمغرب وليبيا، فشغلُه بقضيته لم يَحُلْ دون إمداد" الرّأي العام بأنباء الوطن العربي، ويفيده بكلّ ما حدث فيه استجابة للرّسالة القومية التي تفرض عليه البقاء مرتبط بكلّ من تجمعه به أواصر الدّم واللّسان"[1]، وقد سجّلنا حضورا بارزا للقضية الفلسطينية في الشعر الجزائري، وهذا نموذج لمحمد العيد يؤكد فيه على انتماء فلسطين للعرب وأحقية العرب بها:

نَحنُ شَعبُ الفِدَى فِلسطِينُ مِنَا وَإِلَينَا وَالحُكمُ لِلأُرجُوَانِي
قُل لِمَن سَامَهَا اِحتِلَالًا وَغَصبًا سَوفَ تَدرِي بَلَاءَنَا فِي الطُغيَانِ
يَا ابنَ صُهيُونَ لَا أَرَى لَكَ بُدًّا مِن عُدُولٍ عَن كَيدِكَ الشَّيطَانِي
إنَّ نَهرَ الأُردُنِ للعَرَبِ نَبعٌ وَمَصَبٌ مِن أَقدَمِ الأَزمَانِ
وَفِلِسطِينُ لِلجَزِيرَةِ جُزءٌ عَرَبِيٌّ مِن عَهدِها الكَنعَانِي[2]

هذه الأبيات من قصيدة "هذه قمة الفتوة"، نظمها بمناسبة اختتام السنة الدِّراسية بالمعهد الإسلامي بمدرسة باتنة سنة 1965م، وقد عالج فيها الشاعر كما سبق وأن أشرنا مواضيع عدّة، وهذه سمة بارزة لديه فهو لا يلزم الموضوع الواحد في القصيدة، فتجده

---

[1] محمد بن قاسم ناصر بوحجام، الشعر والهوية القومية، منشورات التبين، الجاحضية،الجزائر،دط، 1999،ص51.

[2] محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص271.

يتطرّق لجزء من عنوان القصيدة أما البقية فيخصّصها لمواضيع مختلفة وهذا هو سبب انعدام الوحدة الموضوعية والعضوية معاً في قصائد الشاعر.

_ الوحدة العربية:

الوحدة المغاربية والعربية موضوع لا يخلو منه قصيد في المدونة الشعرية الجزائرية الحديثة وقد وجدناه بشكل لافت لدى كلّ من الشاعر مفدي زكريا ومحمد العيد آل خليفة.

أشار محمد العيد آل خليفة إلى الوحدة بين مصر والجزائر في رسالة ترحيبية للرئيس جمال عبد الناصر، خلال زيارته للجزائر، يقول فيها:

أَقْبِلْ عَلَى البُشرَى وَيُمنِ الطَّائِرِ وَانّزِل فَأَهلاً بِالنَّزِيلِ الزَّائِرِ

..إنّ الجزائِرَ أُختُ مِصرَ تَلَاقَتَا في شَعبِنَا المتَوَاصِلِ المتَزَاوِرِ

لَا فَرقَ في أَقطَارِنَا وَدِيارِنَا مَا بَينَ مِصرِيٍّ بِهَا وَجزَائِرِيٍّ[3]

بعد التّحية والترّحيب يؤكّد الشاعر على وحدة البلدين، فالأمل واحد والمصير مشترك.

_ الثورة:

أصبح نوفمبر الثورة مفخرةً للشعب جعل الشعراء ينظمون له الألحان تعبئةً وتمجيدا وتخليدا،وقد وجدنا الشاعر محمد العيد ينشد في الذكرى العاشرة لنوفمبر:

نُوفَمبَرُ أَذكَى مِن فُؤادِي شُعُورَهُ وَأَلهَبَ إِحسَاسِي وَأَلهَمَنِي الشِّعرا

نُوفَمبَرُ جَلَّ عَن بِلَادِي ظَلَامَهَا نُوفَمبَرُ فِي آفَاقِهَا أَطلَعَ الفَجرَا

فَفَاتِحُهُ قَد كَانَ أَعظَمَ فَاتِحٍ لَنَا كَسَبَ التَّحرِيرَ وَانتَزَعَ النَّصرَا[4]

بالإضافة إلى الموضوعات السياسية تطرّق الشاعر لموضوعات اجتماعية، وقد تمثلت فيما يلي:

_ العلم:

لقد أدرك الشعراء خطورة الجهل على المجتمع الجزائري، فنظموا قصائد تغنَّوا فيها بالعلم ودعوا إليه، وقد اختلفت طرق المعالجة لهذا الموضوع فمحمد العيد أشار في قصيدته "رعد البشائر" إلى جهود الشيخ البشير الإبراهيمي في التدّريس بباتنة:

بِبَاتنَةَ رَعدُ البَشَائِرِ لَعلَعَا فَأَطرَبَ أَورَاسًا بِهَا وَالشّلَعلَعَا

---

[3] محمد العيد آل خليفة، الديوان، دار موفم للنشر الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر،دط، 2010، ص220.

[4] محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص439.

وَجَادَت غُيُوثُ البرّ كُلَّ رِحَابِهَا فَجَادَت وعَادَت لِلمَبَرَّاتِ مُرتَعًا
وأَخضَبَت الآمَالُ فِيهَا وأَينَعَت كَمَا أَخصَبَ الرَوضُ الجَدِيبُ وَأَينَعَا
فَلَا غُرَو أنّ تَزهَى بِعَهدٍ مُبَارَكٍ لَهَا وتَهُزُّ الرَّأسَ فِيهِ وتَرفَعَا
بِمَدرَسَةٍ دِينِيَةٍ عَرَبِيةٍ أَعدَّت لِإروَاءِ المَدَارِكِ مَنبَعًا[5]

يُشير الشاعر في هذه المناسبة الافتتاحية إلى دور المدرسة المهمّ في بناء وتكوين المستقبل، وفي قصيدة أخرى يقدّم النصائح لطالب العلم:

قَدِّمِ الفِقهَ والفَرَائِضَ واستَق رِئ أُصُولَ التَّوحِيدِ بِإتقَانِ
وتَعَلَّم قَوَاعِدَ النَّحوِ والصَّر فِ ورُضهَا بِمَنطِقٍ وَبَيَانِ
إنَّهَا كُلُّهَا وَسَائِلُ فَهمٍ لِمَعَانِي الحَدِيثِ والقُرآنِ
وإذا نِلتَ مِن لِسَانِكَ حَظًّا وَافِرًا فَانتَفِع بِكُلِّ لِسَانٍ[6]

_ المناسبات الدينية في شعر محمد العيد:

ركزَّ الشعراء على مناسبة المولد النبوي الشريف أكثر من المناسبات الأخرى وقد اشترك معظم الشعراء في طريقة نظم المديح النبوي؛ فبعد المديح والترّحيب بمولد النور يستغلون المناسبة لشكوى الحال البائسة من جهة و يحاولون استثارة النفوس من خلال سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم التي جهرت بالحق ومحقت كل غيّ وضلال، فها هو محمد العيد يسأل الله البركة لنبيه ويسلم عليه:

فَبُورِكَ عُمرُهُ مِن عُمرٍ بَرٍّ وَبُورِكَ لَحدُهُ بَينَ اللُّحُودِ
عَلَيكَ أَبَا البَاتُولِ سَلامُ عَبدٍ قَصِيٍّ عَنكَ يَطمَعُ لِلشُهُودِ
يُنَاشِدُكَ الشَّفَاعَةَ وَهِيَّ كّنزٌ نَفِيسٌ لَا يُقَوَّمُ بالنُّقُودِ
ويَرجُوا مِنكَ إقبَالَا وحَاشَا لِوَجهِكَ أنّ تُعَاقِبَ بالصُّدُودِ[7]

من المناسبات أيضا وجدنا الشعراء يودّعون ويستقبلون حجاج بيت الله الحرام في موسم الحج بأشعارهم ؛ من ذلك توديع محمد العيد آل خليفة للحجاج، يقول فيه:

أيُّها الرَّاحِلُونَ شَوَّقتُم القَل بَ لِمَا لَا يُنَالُ بِالتَشوِيقِ
..إنَّنَا أَصدِقَاؤُكُم فَاذّكُرُونَا فَمِن الوَاجِبَاتِ ذِكرُ الصَّدِيقِ

---

[5] محمد العيد آل خليفة، الديوان، دار موفم للنشر الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر،دط، 2010، ص185.
[6] محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص266.
[7] محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص199.

أُذكُرُونَا عِندَ الوُقُوفِ بِطَوِدٍ قُدُسِيٍّ بِالذِّكرَيَاتِ أَنِيقٍ[8]

وفي آخر القصيد بعد الترّحيب بالحجاج يبذل لهم النصح:

فيَا أَيُّهَا الإنسانُ دُنيَاكَ صَعبَةٌ فَكُن أنتَ مِنهَا في كِفَاحِكَ أَصعَبَا

ويا أيُّهَا الإنسانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلى اللهِ كَدحًا مَا خُلِقتَ لِتَلعَبَ

فإن طِبتَ سَعيًا تَلقَهُ عَنكَ رَاضِيًا وإنّ سُؤتَ سَعيًا تَلقَهُ عَنكَ مُغضبًا[9]

يحذِّر الإنسان من عقاب الله جزاء العمل السيء ويرّغبه في اللّجوء إلى الله لأنّه ملاذه الوحيد.

أثناء قراءتنا لديوان الشاعر محمد العيد وجدنا أن أسلوب العيد لم يستقر على درجة واحدة في الجمالية، فالقصائد المتعلقة بالنصح والإرشاد بسيطة خالية من الجمالية الشعرية وقد أشار عبد الله الركيبي إلى هذا في قوله: " أن قصائد محمد العيد التي تدعو إلى العلم ونبذ الجهل والدعوة إلى الإصلاح كانت ضعيفة في أسلوبها"[10]، فيركز الشاعر فيها على رسالته أكثر من شيء آخر، أما القصائد التي تقرب إلى الشعرية فيرى محمد ناصر أن القرآن أثر فيها وحملها لهذه الدرجة فكانت الأعمال الشعرية المتأخرة لكل من العيد ومفدي أفضل من تلك التي نظموها في بداية مشوارهم الإبداعي:" إن أشعار هذه المرحلة كانت أكثر نضجا وتجربة وصياغة، مع ملاحظة أنها كانت أكثر تأثرا بالقرآن من تلك التي نظموها في بداية حياتهم الشعرية مما يدل على أن القرآن الكريم عمل عمله في هذه الأشعار تهذيبا لها من اللفظ الغريب وتنمية لقاموسهم اللغوي وتطويرا لأساليب الكتابة حتى ولو كان هذا التطور بطيئا غير أنه يعتبر تقدما"[11] ويرجع في سياق آخر سبب هذا التطور في الشعر لما فيه من الذاتية المرتبطة بالصور، " وقد استقرينا جل القصائد التي تكون الصورة فيها منعدمة أو تكون مسطحة باهتة، مباشرة، فوجدناها قصائد تعالج موضوعات يتوجه فيها الشاعر إلى المتلقين بالنصح والإرشاد والتوجيه وما في هذه المواقف التي كثرت في المرحلة الإصلاحية بخاصة، ورأينا في الوقت ذاته بأن الصورة في الأغلب الأعم تكون أقرب إلى

---

[8] محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص192ــ193.

[9] المصدر نفسه، ص197.

[10] ــ عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشعر الديني الإصلاحي، ج2 ،دار الكتاب العربي، دط، دت، ص 27.

[11] ــ محمد ناصر، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ص 151.

التوفيق والنجاح عندما تكون المعالجة متعلقة بالمواضيع الذاتية كالغزل والوصف و الوجد والذكرى والحنين والشكوى"[12] ويشاركه أبو القاسم سعد الله في هذا التصور الذي يرى أن" المناسبة التي توحي إلى محمد العيد تختلف هي الأخرى ارتفاعا وانخفاضا وعمقا وسطحية، فهناك المناسبات الحارة التي تفرض نفسها على الشاعر فرضا فيصوغها في شعر يقتبس من حرارتها وعمقها ما يسمو به إلى درجة عالية في الفن وهناك مناسبات أخرى تنخفض فيها درجة إلى حد كبير فلا يُقْدِمُ عليها الشاعر عن رضى نفسي واستجابة عاطفية ولكن إرضاء للآخرين ورغبة في المشاركة."[13]

[12] ــ محمد ناصر، الشعر الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية(1925-1926) ،ص 500.
[13]ـــ أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر، محمد العيد آل خليفة، ص 220.